المكتبة الدينية للطريقة العلاوية بمستغانم

البحر المسجور

في تفسير القرآن بمحض النور

تأليف الأستاذ الشيخ
أحمد بن مصطفى العلاوي المستغاني

الطبعة الأولى

حقوق الطبع والنقل محفوظة
المطبعة العلاوية بمستغانم

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله وسلم على المصطفى وآله وصحبه أهل الوفا

مقدمة التفسير

نحمدك اللهم يامن ملأت قلوب اوليائك بمحبتك ومعرفتك، فأشهدتهم سر عظمتك، فتحملوا أعباء أمانتك، ثم أنطقت ألسنتهم بجواهر الحكم، وألهمتهم ينابع العلم، فهم في رياض معرفتك سابحون، ومن فيض ذاتك الأقدسية مستمدون.

ونصلي ونسلم ونثني على حضرة سيدنا ومولانا محمد رسول الله، منبع الهداية والعلوم، أخرج الناس من عماية الجهل والضلال، الى نور المعرفة والهداية والايمان، وعلى آله وأصحابه الأطهار، وصفوة أمته الأبرار.

أما بعد: الى القاريء المسلم الكريم، نقدم جوهرة فريدة في بابها، من جواهر الاستاذ العارف الاكبر، والقطب الاشهر، الشيخ: أحمد بن مصطفى العلاوي [1] رضوان الله عليه، وقدس سره.

تلك الجوهرة الثمينة التي نقدمها اليك، تنطوي على سر الحقيقة في القرآن كما تتجلى في قلوب أهل العرفان، ولا يتوصل اليها الا الراسخون في العلم من عباد الرحمن، الذين أمدهم بفيض من بحر القرآن، بعد تحققهم في مقام الاحسان أولئك الخواص المحمديون الموسومون في الاية الكريمة بقوله: (فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا، وعلمناه من لدنا علما.) [2]

ذلك العلم الذي أخذ منه الاستاذ قبسا لعلكم تصطلون بنوره، وغاص في بحر القرآن، ليفهم المسلم أسراره ويتدبر معانيه التي لا تنفد، وماءه الذي

(1) ان الشيخ احمد بن مصطفى العلاوي غني عن التعريف بما خلفه من اثار علمية وزوايا واتباع يعدون بالالاف، في المغرب العربي ومشرقه، وفي افريقيا واوربا وامريكا، وهو مؤسس الطريقة العلاوية قبيل الحرب العالمية الأولى، بعد وفاة شيخه العرف الصوفي سيدي محمد بن الحبيب البوزيدي المستغانمي، وقد قام الاستاذ بنهضة دينية واصلاح شامل لما علق بالدين من خرافات واوهام، وليس هذا محل تحليلها الى ان وافته المنية عام 1934.

(2) سورة الكهف اية 65

لا يغيض، على ما ورد في الأثر: (أن المتدبر فيه يرى من غرائبه كل يوم مالا يرى بالأمس.) (3)

ومما يؤيد ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم (ان للقرآن ظاهرا وباطنا؛ وحدا ومطلعا.) (4) وقد أبحر الأستاذ العلاوي في ظاهر القرآن وباطنه؛ وحد ومطلعه؛ فأخرج من مكنونه دررا ومن أعماقه ومطالعه جواهر؛ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ وسماه بـ [البحر المسجور في تفسير القرآن بمحض النور] متدرجا في تفسيره للآية على ما يقتضيه مفهوم اللفظ؛ وظاهر المعنى؛ ثم أتبع ذلك بما يستنبط من احكامها؛ ثم ما تعطيه الاشارة بلسان الخصوصية؛ ثم يختم بكلام اخص مما قبله تحت عنوان: [لسان الروح].

وهكذا يسير في تفسيره على هذا المنهج الفريد؛ والأسلوب العجيب؛ لادخل فيه لغيره من بقية المفسرين الاقدمين والمحدثين لكتاب الله العزيز؛ غير ان الاستاذ عاجلته المنية وتوقف القلم من مداد البحر المسجور؛ عند قوله تعالى: (ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير) (5)

ولعل القاريء يتساءل عن طبع هذا الجزء من التفسير؛ وهو غير كامل، فنجيب: بأن غرضنا من طبعه؛ هو تعريف القاريء المسلم الجزائري بتراثه الديني الروحي الذي خلفه عالم كبير؛ وصوفي شهير؛ وأحد أعلام الجزائر الذين ظهروا في القرن العشرين.

وصف المخطوطة: أن المخطوطة الوحيدة التي اعتمدناها في هذه الطبعة تحتوي على 148 صفحة مقياسها (13 × 25 سم) ومعدل السطور في كل صفحة 30 سطرا؛ أنتسخها سيدي عبد العزيز أعراب من المخطوطة الاصلية التي أملاها المؤلف الشيخ: أحمد بن مصطفى العلاوي بخط كاتبه الشيخ: صالح التمساني وكان الفراغ من نسخها سنة 1934 م.

---

(3) البحر المسجور ص 12 (4) البحر المسجور ص 10 (5) سورة البقرة اية 106

وتحمل المخطوطة الثانية تاريخ الفراغ من نسخها سنة 1958. وهي السنة التي أمر فيها الشيخ سيدي الحاج المهدي (6) رحمه الله بانتساخ المخطوط الاصلي الذي خرمته الأرضة فتآكلت بعض أوراقه. ووكل بهذه المهمة الي سيدي عبد العزيز أعراب. وكنت أشاركه النسخ وأملي عليه في بعض الأحيان.

وعذرنا في هذه الطبعة وجود أخطاء طفيفة وقعت سهوا من الاستاذ الخطاط أحمد المسالمة الذي بذل جهودا لاتقدر لاخراج النسخة أقرب ما تكون الى الكمـــال.

وقد أعدنا النظر لتصحيح الخطاء والصواب. وألحقناها في اخر الكتاب، حتى يتمكن القاريء من تصحيحها قبل قراءته وعسانا أن نستدرك ذلك في الطبعة الثانية إن شـــاء الله.

كما نعتذر الى القاريء الكريم عن عدم وجود ورق جيد في السوق المحلية. ونحن بعد هذا نقدم اعظم أمتنان، وأجل تقدير لسيدى رشيد محمد الهادي على ما بذله من مجهودات مضنية في جمع الكتاب وطبعه وإخراجه للقاريء على هذا الشكل الانيق. كما لاننسى جماعة من اتباع الطريقة العلاوية الصادقين الذين شاركوا في طبع الكتاب والله أسأل أن يجازي الجميع جزاء العاملين المخلصين، وينفع به القـــاريء المسلم إنـــه ولي التوفيق عليه توكلـــت واليـــه أنيـــب.

---

6) الشيخ الحاج المهدي هو نجل الاستاذ العارف بالله الشيخ عدة بن تونس خليفة الاستاذ احمد بن مصطفى العلاوي، تولى مشيخة الطريقة العلاوية بعد انتقال والده الى الرفيق الاعلى يوم 4 يونيوا 1952
فسار على خطة والده وجده بجد واجتهاد في البناء وتعمير الزوايا بالعلم وحفظ القرآن الكريم بالعناية المطلوبة والحرس على ذكر الله وغرس الاخلاق المرضية في نفوس الشباب الى ان توفاه الله في 24 ابريل 1975 رحمه الله رحمة واسعة.

يحـي الطاهر برقـه
أستـاذ بوهـران
1982

بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا . فَاتَّضَحَ مِنْ هَذَا أَنَّ الْحَرْفَ بِانْفِرَادِهِ قُرْآنٌ بِالنَّظَرِ لِمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْمَعَانِي . وَفِي رِوَايَةٍ لَا أَقُولُ أَلَمٌ حَرْفٌ، بَلِ الْأَلِفُ حَرْفٌ، وَاللَّامُ حَرْفٌ، وَالْمِيمُ حَرْفٌ . وَلِهَذَا وَرَدَ أَنَّ مَا فِي الْكِتَابِ فِي الْفَاتِحَةِ، وَمَا فِي الْفَاتِحَةِ فِي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ . وَوَرَدَ أَيْضًا أَنَّ مَا فِي الْبَسْمَلَةِ فِي بَائِهَا، وَمَا فِي الْبَاءِ فِي النُّقْطَةِ الَّتِي تَحْتَهَا . وَقَدْ كُنْتُ جَمَعْتُ رِسَالَةً فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِهَذَا الْمَعْنَىٰ، وَلَوْلَا مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ كِتَابُ اللَّهِ مِنَ الْغَرَائِبِ، لَمْ نُؤْمَرْ بِالتَّدَبُّرِ فِيهِ عَلَىٰ مَرِّ الدُّهُورِ . قَالَ جَلَّ ذِكْرُهُ : « **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ** » . وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « أَعْرِبُوا الْقُرْآنَ وَالْتَمِسُوا غَرَائِبَهُ » . وَلَعَلَّ الْقَائِلَ يَقُولُ قَدْ كَفَانَا اللَّهُ مَا أَهَمَّنَا مِنِ اسْتِخْرَاجِ جَوَاهِرِهِ عَلَىٰ يَدِ مَنْ تَقَدَّمَنَا، فَأَقُولُ وَإِذَنْ لَضَاعَ حَظُّنَا مِنَ التَّدَبُّرِ فِيهِ، وَحَاشَا لِلَّهِ، لَا يَقُولُ بِهَذَا عَاقِلٌ، وَلَا مَنْ هُوَ بِالْإِيمَانِ حَافِلٌ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ لِمَ لَمْ يَكْتَفِ أَهْلُ الْقَرْنِ الثَّانِي عَلَى الْكَلَامِ فِيهِ بِكَلَامِ مَنْ تَقَدَّمَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْقَرْنِ الْأَوَّلِ وَأَهْلُ الثَّالِثِ بِالثَّانِي . وَهَكَذَا

فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ الْحَقَّ جَلَّ ذِكْرُهُ لَمْ يَخُصَّ بِالتَّدَبُّرِ فِيهِ جِيلًا دُونَ جِيلٍ ، وَأَيْضًا لَكَانَ التَّخْصِيصُ يُشْعِرُ بِانْقِضَاءِ مَعَانِيهِ ، وَالْحَالَةُ بِخِلَافِ ذَلِكَ . قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « الْقُرْآنُ لَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ وَمِنْ عَجَائِبِهِ أَنَّ الْمُتَدَبِّرَ فِيهِ يَرَى مِنْ غَرَائِبِهِ كُلَّ يَوْمٍ مَا لَا يَرَاهُ بِالْأَمْسِ » . قَالَ عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ سُلَيْمَانَ : كَانَ ابْنُ عَوْنٍ يَقُولُ : ثَلَاثٌ أُحِبُّهُنَّ لِي وَلِإِخْوَانِي ، وَذَكَرَ مِنْهَا أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَتَدَبَّرُهُ الرَّجُلُ وَيَتَفَكَّرُ فِيهِ ، فَيُوشِكُ أَنْ يَقَعَ عَلَى عِلْمٍ لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُهُ . وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا مَا أَخْرَجَهُ أَبُو نُعَيْمٍ وَغَيْرُهُ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيَّانَ قَالَ : قِيلَ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : يَا مُوسَى ، إِنَّ مَثَلَ كِتَابِ أَحْمَدَ فِي الْكُتُبِ بِمَنْزِلَةِ وِعَاءٍ فِيهِ لَبَنٌ ، كُلَّمَا مُخِضَتْ أَخْرَجَتْ زُبْدَتَهُ . وَيَشْتَمِلُ هَذَا وَنَحْوُهُ مَا ذَكَرَهُ أَبُو بَكْرِ بْنُ الْعَرَبِيِّ فِي فُنُونِ التَّأْوِيلِ : عُلُومُ الْقُرْآنِ خَمْسُونَ عِلْمًا وَأَرْبَعُمِائَةِ عِلْمٍ وَسَبْعَةُ آلَافِ عِلْمٍ وَسَبْعُونَ أَلْفِ عِلْمٍ مَضْرُوبَةٌ فِي أَرْبَعَةٍ ، إِذْ لِكُلِّ كَلِمَةٍ ظَاهِرٌ وَبَاطِنٌ وَحَدٌّ وَمَطْلَعٌ وَهَذَا مُطْلَقٌ دُونَ اعْتِبَارِ التَّرْكِيبَاتِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الرَّوَابِطِ وَهَذَا مَا

لَا يُحْصَرُ ، وَلَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ . قُلْتُ وَلَا يَقَعُ عَلَى عُلُومِهِ ، وَيَتَفَرَّسُ فِي وُجُوهِهِ إِلَّا مَفْتُوحٌ عَلَيْهِ . وَأَمَّا الْمَحْجُوبُ فَإِنَّهُ يُنَادِي مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ وَيَسْمَعُ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ حَدِيدٍ ، فَهُوَ أَبْعَدُ مِنْ أَنْ يَتَنَاوَلَ الْغَايَةَ مِنْ ظَوَاهِرِهِ ، فَكَيْفَ بِبَاطِنِهِ ، وَأَيْنَ هُوَ مِنْ حَدِّهِ وَمَطْلَعِهِ . وَمَنْ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِالتَّوَصُّلِ إِلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ لَا يَبْعُدُ أَنْ يَقُولَ كَمَا قَالَ الْإِمَامُ عَلِيٌّ - كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ - لَوْ شِئْتُ لَوَقَّرْتُ أَرْبَعِينَ وَقْرًا مِنْ شَرْحِ الْفَاتِحَةِ ، أَوْ كَلَامًا هَذَا مَعْنَاهُ . وَلَعَلَّكَ تَقُولُ أَيْنَ الْإِمَامُ عَلِيٌّ وَأَيْنَ عُلُومُهُ . فَأَقُولُ يَا لِلَّهِ الْعَجَبُ ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَحْتَفِلْ بِهِ مِنْ أَهْلِ زَمَانِهِ إِلَّا الْقَلِيلُ ، حَتَّى كَانَ يَقُولُ : أَنَا جَنْبُ اللَّهِ الَّذِي فَرَّطْتُمْ فِيهِ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ وَالْمُفَرِّطُ فِيهِ هُوَ الْمُفَرِّطُ الْآنَ فِي أَهْلِ زَمَانِهِ .

الْفَصْلُ الثَّالِثُ

فِيمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ فِي الْقُرْآنِ عُلُومٌ لَيْسَتْ مُتَعَاطِيَةً فِيمَا بَيْنَ الْعُمُومِ

وَلَعَلَّ الْمُتَحَمِّدَ عَلَى الظَّوَاهِرِ لَا يَرَى مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إِلَّا مَا

وَصَلَ إِلَيْهِ مِنْ جِهَةِ بِضَعَتِهِ الْقَلِيلَةِ، وَقَرِيحَتِهِ الْكَلِيلَةِ، وَيُنْكِرُ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ، وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ مَا عَرَفَهُ مِنْ ظَاهِرِ الْكِتَابِ إِلَّا كَمَنْ عَرَفَ الْقِشْرَ مِنَ اللُّبَابِ، وَمَا وَرَاءَ ذَلِكَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ. وَهَلْ يَعْتَقِدُ أَنَّ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ فَهْمُهُ هُوَ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ بَوَاطِنُ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي كِتَابِ اللَّهِ: كَلَّا، وَلْيُفَتِّشْ نَفْسَهُ إِنْ كَانَ مَا أَكَنَّهُ فُؤَادُهُ أَعَزَّ مِمَّا تَحَدَّثَ بِهِ، فَهُوَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ، وَإِلَّا مَا ضَاعَ لَهُ أَكْثَرُ مِمَّا حَصَّلَ عَلَيْهِ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّ مِنَ الْعِلْمِ كَهَيْئَةِ الْمَكْنُونِ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا الْعُلَمَاءُ بِاللَّهِ، فَإِذَا أَظْهَرُوهُ أَنْكَرَتْهُ أَهْلُ الْغِرَّةِ بِاللَّهِ». وَقَالَ: «عِلْمُ الْبَاطِنِ سِرٌّ مِنْ أَسْرَارِ اللَّهِ، يَقْذِفُهُ اللَّهُ فِي قَلْبِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ». وَقَالَ أَيْضًا: «الْعِلْمُ عِلْمَانِ، فَعِلْمٌ فِي الْقَلْبِ فَذَلِكَ الْعِلْمُ النَّافِعُ، وَعِلْمٌ عَلَى اللِّسَانِ، فَذَلِكَ حُجَّةُ اللَّهِ عَلَى ابْنِ آدَمَ». فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ الْعُلُومَ الْخَفِيَّةَ غَيْرُ الْعُلُومِ الْمُتَعَاطَيَةِ. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِيمَا شَاعَ عَنْهُ: حَفِظْتُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : وِعَائَيْنِ مِنَ الْعِلْمِ ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَبَثَثْتُهُ ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَلَوْ بَثَثْتُهُ لَقَطَعْتُمْ مِنِّي هَذَا الْبَلْعُومَ . نَقَلَهُ أَبُو عُمَرَ . وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ : لَوْ قُلْتُ لَكُمْ مَا أَعْلَمُ مِنْ تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : « **يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ** » ، لَرَجَمْتُمُونِي أَوْ لَقُلْتُمْ إِنِّي كَافِرٌ . ذَكَرَهُ الشَّعْرَانِي فِي الْيَوَاقِيتِ وَالْجَوَاهِرِ . وَمِمَّا يُنْسَبُ لِزَيْنِ الْعَابِدِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

يَا رَبِّ جَوْهَرُ عِلْمٍ لَوْ أَبُوحُ بِهِ ... لَقِيلَ لِي أَنْتَ مِمَّنْ يَعْبُدُ الْوَثَنَا

وَلَاسْتَحَلَّ رِجَالٌ مُسْلِمُونَ دَمِي ... يَرَوْنَ أَقْبَحَ مَا يَأْتُونَهُ حَسَنَا

وَقَالَ سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : لَوْ حَدَّثْتُكُمْ بِكُلِّ مَا أَعْلَمُ لَقُلْتُمْ رَحِمَ اللَّهُ قَاتِلَ سَلْمَانَ . وَقَالَ الْإِمَامُ عَلِيٌّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ : إِنَّ بَيْنَ جَنْبَيَّ عِلْمًا لَوْ قُلْتُهُ لَأَزَلْتُمْ هَذَا عَنْ هَذَا . وَأَشَارَ بِرَأْسِهِ عَنْ جَنْبَتَيْهِ فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ فِي الزَّوَايَا خَبَايَا . وَفِي وَصَايَاهُ لِسَيِّدِنَا كُمَيْلِ بْنِ زِيَادٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، مَا يُلَائِمُ أَكْثَرَ الْمُشَارِ إِلَيْهِ ، وَلْنَرِدْهَا مَعَ طُولِهَا لِمَا فِيهَا مِنَ الْحِكَمِ الَّتِي لَا يُسْتَغْنَى عَنْهَا . قَالَ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ :

يَا كُمَيْلُ، إِنَّ الْقُلُوبَ هَذِهِ أَوْعِيَةٌ، فَخَيْرُهَا أَوْعَاهَا لِلْخَيْرِ. وَالنَّاسُ ثَلَاثَةٌ، فَعَالِمٌ رَبَّانِيٌّ، وَمُتَعَلِّمٌ عَلَى سَبِيلِ النَّجَاةِ، وَهَمَجٌ رِعَاعٌ أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعِقٍ، لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ الْعِلْمِ، وَلَمْ يَلْجَؤُوا إِلَى رُكْنٍ وَثِيقٍ. ثُمَّ قَالَ: إِنَّ هَهُنَا لَعِلْمًا - وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى صَدْرِهِ - لَوْ أَصَبْتُ لَهُ حَمَلَةً لَقَدْ أَصَبْتُ لَقِنًا غَيْرَ مَأْمُونٍ، يَسْتَعْمِلُ الدِّينَ لِلدُّنْيَا، وَيَسْتَظْهِرُ بِحُجَجِ اللَّهِ عَلَى كِتَابِهِ، وَبِنِعَمِهِ عَلَى مَعَاصِيهِ. أَوْ لِحَامِلِ حَقٍّ لَا بَصِيرَةَ لَهُ، يَنْقَدِحُ الشَّكُّ فِي قَلْبِهِ بِأَوَّلِ عَارِضٍ مِنْ شُبْهَةٍ، لَا يَدْرِي أَيْنَ الْحَقُّ، إِنْ قَالَ أَخْطَأَ، وَإِنْ أَخْطَأَ لَمْ يَدْرِ مَشْعُوفٌ بِمَا لَا يَدْرِي حَقِيقَةً، فَهُوَ فِتْنَةٌ لِمَنْ فُتِنَ بِهِ. وَإِنَّ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّهِ مَنْ عَرَّفَهُ اللَّهُ دِينَهُ، وَكَفَى بِالْمَرْءِ جَهْلًا أَنْ لَا يَعْرِفَ دِينَهُ، كَذَلِكَ يَمُوتُ الْعِلْمُ بِمَوْتِ حَامِلِيهِ. اللَّهُمَّ بَلَى لَا تَخْلُو الْأَرْضُ مِنْ قَائِمٍ لِلَّهِ بِحُجَّتِهِ إِمَّا ظَاهِرًا مَشْهُورًا، أَوْ خَافِيًا مَغْمُورًا، لِئَلَّا تَبْطُلَ حُجَجُ اللَّهِ وَبَيِّنَاتُهُ وَكَمْ ذَا، وَأَيْنَ أُولَئِكَ. أُولَئِكَ وَاللَّهِ الْأَقَلُّونَ عَدَدًا، وَالْأَعْظَمُونَ قَدْرًا، يَحْفَظُ اللَّهُ بِهِمْ حُجَجَهُ وَبَيِّنَاتِهِ حَتَّى يُودِعُوهَا نُظَرَاءَهُمْ

وَيَزْرَعُوهَا فِي قُلُوبِ أَشْبَاهِهِمْ هَجَمَ بِهِمُ الْعِلْمُ عَلَى حَقِيقَةِ الْبَصِيرَةِ، وَبَاشَرُوا رُوحَ الْيَقِينِ، وَاسْتَلَانُوا مَا اسْتَوْعَرَهُ الْمُتْرَفُونَ وَأَنِسُوا بِمَا اسْتَوْحَشَ مِنْهُ الْجَاهِلُونَ وَصَحِبُوا الدُّنْيَا بِأَبْدَانٍ أَرْوَاحُهَا مُعَلَّقَةٌ بِالْمَحَلِّ الْأَعْلَى، أُولَئِكَ خُلَفَاءُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ، وَالدُّعَاةُ إِلَى دِينِهِ آهٍ، آهٍ، شَوْقًا إِلَى رُؤْيَتِهِمْ. وَالْمَحْصُولُ مِمَّا نَقَلْنَاهُ أَنَّ جَمِيعَ مَا أَشَارَتْ إِلَيْهِ الْكُتُبُ هُوَ بَعْضٌ مِمَّا تَضَمَّنَتْهُ الْقُلُوبُ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ.

الفَصْلُ الرَّابِعُ
فِيمَا يَشْعُرُنَا نَحْنُ بِأَنَّنَا الْمَقْصُودُونَ بِالْقُرْآنِ وَلَا وَاحِدٌ أَوْلَى مِنَ الْآخَرِ فِي كُلِّ زَمَانٍ

فَأَقُولُ إِنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ، يُكَلِّمُ بِهِ عِبَادَهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ وَكِتَابٌ بُعِثَ إِلَيْهِمْ بِالْخُصُوصِ، وَهُمْ لَا يَدْرُونَ، لَاهِيَةٌ قُلُوبُهُمْ كَأَنَّهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّهُ وُجِدَ اتِّفَاقًا، فَصَارُوا يَأْخُذُونَ مِنْهُ أَحْكَامَهُمْ وَلَيْسُوا بِالْمَقْصُودِينَ فِي عِلْمِ اللَّهِ، أَوْ نَقُولُ الْآنَ بِالْخِطَابِ. إِنَّمَا

نَزَّلَهُ اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَمَنْ مَعَهُ، وَهُمْ يَأْخُذُونَ بِالتَّبَعِيَّةِ، لَا بِالْإِسْتِقْلَالِ وَحَاشَا لِلَّهِ. قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَنَا رَسُولُ مَنْ أَدْرَكْتُهُ حَيًّا وَمَنْ يُولَدُ بَعْدِي» فَلَا فَرْقَ بَيْنَ الْمَبْعُوثِ إِلَيْهِمْ مِنْ جِهَةِ تَعَلُّقِ الْخِطَابِ فَقَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: «**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**»، يَشْمَلُ كُلَّ مُؤْمِنٍ وَلَا تَقُولُ إِنَّهُ قَالَ، بَلْ هُوَ الْآنَ يَقُولُ. عَرَفَ مَنْ عَرَفَ، وَجَهِلَ مَنْ جَهِلَ. فَمَنْ فَتَحَ اللَّهُ بَصِيرَتَهُ يَرَاهُ الْآنَ يَتَنَزَّلُ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ. وَإِذَا قَرَأَهُ يَقْرَأُهُ مِنْ إِمَامٍ مُبِينٍ. وَأَعْظَمُهُمْ دَرَجَةً مَنْ يَتَلَقَّاهُ مِنْ أَرْحَمِ الرَّاحِمِينَ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَلَا نَسْتَبْعِدُ ذَلِكَ. فَإِنَّ الْكَلَامَ كَلَامُ اللَّهِ، لَا يَتَّصِفُ بِهِ غَيْرُهُ. نَعَمْ، الْكُلُّ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ وَمَا فَاتَهُ إِلَّا أَنْ يَسْمَعَهُ مِنَ اللَّهِ، وَلَا يَسْمَعُهُ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِذَا كَانَ سَمْعُهُ سَمْعَ اللَّهِ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتَ سَمْعَهُ إِلَى آخِرِ الْحَدِيثِ. وَالصِّفَةُ لَا تَنْفَكُّ عَنْ مَوْصُوفِهَا، وَلَا تَظْهَرُ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ لُبْسِهَا «**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ**». مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا سَمِعَ خِطَابًا مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ لَمْ يَسْتَدِلَّ

عَلَى أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ يُكَلِّمُهُ بِهِ إِلَّا بِهِ، مِنْ أَجْلِ مَا أُعْطِيَ مِنْ سَلَامَةِ الذَّوْقِ وَصِحَّةِ الْوِجْدَانِ، وَهَكَذَا الْوَاحِدُ مِنَّا مَهْمَا تَقَوَّى يَقِينُهُ وَانْشَرَحَ بَاطِنُهُ فِي مَا يَسْمَعُهُ مِنْ أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ، فَلَا يَرَاهُ إِلَّا كَلَامًا يُكَلِّمُهُ اللَّهُ بِهِ فِي ذَلِكَ الْحَالِ، وَلَا يَسْتَدِلُّ عَلَيْهِ إِلَّا بِهِ، لِمَا يَجِدُهُ فِي قَلْبِهِ مِنْ تَأْثِيرِ النُّزُولِ وَرَعْدَةِ الزَّوَاجِرِ. أَخْرَجَ الطَّبَرَانِيُّ عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ مَرْفُوعًا: إِذَا تَكَلَّمَ اللَّهُ بِالْوَحْيِ، أَخَذَتِ السَّمَاءُ رَجْفَةً شَدِيدَةً مِنْ خَوْفِ اللَّهِ، فَإِذَا سَمِعَ بِذَلِكَ أَهْلُ السَّمَاءِ، صَعِقُوا وَخَرُّوا سُجَّدًا، فَيَكُونُ أَوَّلُهُمْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرِيلُ، فَيُكَلِّمُهُ اللَّهُ بِوَحْيِهِ بِمَا أَرَادَ، فَيَنْتَهِي بِهِ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، فَكُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ سَأَلَهُ أَهْلُهَا مَاذَا قَالَ رَبُّنَا. قَالَ الْحَقَّ. فَيَنْتَهِي بِهِ حَيْثُ أُمِرَ، وَهَكَذَا لَمَّا يَنْزِلُ بِهِ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحْصُلُ لَهُ مِنْ تَأْثِيرِ النُّزُولِ مَا تَرْتَعِدُ بِهِ مَفَاصِلُهُ، وَلَنْ يَزَالَ هَكَذَا مَهْمَا مَرَّ عَلَى قَلْبٍ فَارِغٍ مِنَ الْكُدُورَاتِ إِلَّا وَيَحْدُثُ فِيهِ مِنْ تَأْثِيرِ النُّزُولِ، وَقَدْ كَانَ لِي نَصِيبٌ مِنْ ذَلِكَ - وَلِلَّهِ الْحَمْدُ - فَكُنْتُ مَهْمَا يَطْرُقُ سَمْعِي كَلَامُ اللَّهِ فَتَرْتَجِدُ

بَوَادِرِي عَنِ الْفَحْصِ، حَتَّى كَأَنِّي أَسْمَعُ حَسِيسًا مِنْ بَقِيَّةِ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ وَكُنْتُ إِذَا تَنَاوَلْتُ الْمُصْحَفَ الْكَرِيمَ نَتَنَاوَلُهُ بِيَدِ التَّبْجِيلِ وَالتَّعْظِيمِ، وَنَرَاهُ كِتَابًا وَصَلَ إِلَيَّ مِنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ، مَرْقُومًا فِي أَوَّلِهِ بَعْدَ الْفَاتِحَةِ **وَبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ**، فَنَأْخُذُ فِي الْفَحْصِ فِيهِ أَشَدَّ مِنْ فَحْصِ الْغَرِيبِ إِذَا أَتَاهُ كِتَابٌ مِنْ أَهْلِهِ. فَهُوَ بِالطَّبْعِ يَسْكُنُ إِلَيْهِ، وَلَا يَطْمَئِنُّ إِلَّا إِذَا اسْتَوْعَبَهُ بِأَجْمَعِهِ، وَبِهَذِهِ الْخَاصِّيَّةِ - وَلِلَّهِ الْحَمْدُ - أَطْلَعَنِي اللَّهُ عَلَى الْبَعْضِ مِنْ جَوَاهِرِهِ، وَلَا تَحْسَبَنَّ مَا رَسَمْتُهُ هُوَ مَجْمُوعُ مَا فَهِمْتُهُ بَلْ وَلَا عُشُورُهُ وَمِصْدَاقُهُ: الْقُرْآنُ لَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ.

تَنْبِيهٌ

إِنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ نَزَلَ عَلَى أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ مُنَجَّمًا، وَهَذَا بِاعْتِبَارِ وُصُولِهِ إِلَيْهِمْ. وَأَمَّا بِاعْتِبَارِ وُصُولِهِ وَمَجِيئِهِ إِلَيْنَا، فَقَدْ جَاءَنَا مِنَ اللَّهِ جُمْلَةً، بِوَاسِطَةِ مَنْ حَفِظَهُ اللَّهُ بِسَبَبِهِمْ، وَاللَّهُ هُوَ الْحَافِظُ: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾. وَهَذَا يَجْرِي فِي مَنْ

قَبْلَنَا وَمَنْ بَعْدَنَا ، وَقَوْلُنَا جَاءَنَا مِنَ اللَّهِ جُمْلَةً، يُؤَيِّدُهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي جُمُعَةَ الْأَنْصَارِي ، قَالَ : قُلْتُ : يَارَسُولَ اللَّهِ ، هَلْ مِنْ قَوْمٍ أَعْظَمُ مِنَّا أَجْرًا ، آمَنَّا بِكَ وَاتَّبَعْنَاكَ . قَالَ : مَايَمْنَعُكُمْ مِنْ ذَلِكَ وَرَسُولُ اللَّهِ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ ، يَأْتِيكُمْ بِالْوَحْيِ مِنَ السَّمَاءِ . بَلْ قَوْمٌ يَأْتُونَ مِنْ بَعْدِكُمْ ، يَأْتِيهِمْ كِتَابُ اللَّهِ بَيْنَ لَوْحَيْنِ فَيُؤْمِنُونَ ... إِلَى آخِرِ الْحَدِيثِ . وَالشَّاهِدُ فِي يَأْتِيهِمْ كِتَابُ اللَّهِ بَيْنَ لَوْحَيْنِ ، فَعَلِمْنَا يَقِينًا أَنَّنَا مَقْصُودُونَ بِكِتَابِ اللَّهِ إِلَيْنَا ، لَا إِنَّنَا قَرَأْنَاهُ بِالتَّبَعِيَّةِ لِغَيْرِنَا وَقَوْلُنَا وَصَلَ إِلَيْنَا جُمْلَةً ، هَذَا بِاعْتِبَارِ أَلْفَاظِهِ ، وَأَمَّا بِاعْتِبَارِ مَعَانِيهِ ، فَإِنَّهَا لَنْ تَزَالَ تَحْتَ أَمِينِ الْوَحْيِ ، يَتَنَزَّلُ بِهَا الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِ مَنْ كَمُلَ اسْتِعْدَادُهُ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَا يَتَنَزَّلُ بِهَا إِلَّا مُنَجَّمَةً ، وَبِالْقَدْرِ الْمُحْتَاجِ إِلَيْهِ ، حَسْبَمَا تَقَدَّمَ فِي نُزُولِ أَلْفَاظِهِ وَلَا تَسْتَبْعِدْ نُزُولَ الْمَعْنَى عَلَى قُلُوبِ الْعَارِفِينَ بِوَاسِطَةِ الْمَلَكِ : **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ** وَإِنْ لَمْ يَتَّضِحْ ذَلِكَ عِنْدَكَ ، تَذَكَّرْ حَدِيثَ لَنْ تَخْلُوَ الْأَرْضُ مِنْ أَرْبَعِينَ

رَجُلاً مِثْلَ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ ، فَمَا أَقْرَبَ الْمَلَائِكَةَ مِنْ قُلُوبٍ تُمَاثِلُ قَلْبَ خَلِيلِ اللَّهِ ، فَقُلُوبُ الْعَارِفِينَ مَسْكَنُهَا الْمَلَأُ الْأَعْلَى ، فَلِهَذَا أُشْرِكَتْ الْمَلَائِكَةُ فِي الْمَعَارِفِ ، قَالَ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي الْحَوَارِيِ لِلْإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : سَمِعْتُ شَيْخِي ابْنُ سَمْعَانَ يَقُولُ : إِذَا اعْتَدَّتْ النُّفُوسُ تَرْكَ الْآثَامِ جَالَتْ فِي الْمَلَكُوتِ وَرَجَعَتْ إِلَى مَاحِبِهَا بِطَرَائِفِ الْحِكْمَةِ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يُؤَدِّيَ لَهَا عَالِمٌ عِلْمًا . قَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ : صَدَقْتَ يَا أَحْمَدُ ، وَصَدَقَ شَيْخُكَ . ثُمَّ أَقُولُ : إِنَّ اللَّهَ جَلَّ ذِكْرُهُ لَنْ يَزَالَ كَفِيلاً بِبَيَانِ مَعَانِي الْقُرْآنِ فِي كُلِّ عَصْرٍ وَزَمَانٍ ، قَالَ وَلَنْ يَزَالَ قَائِلاً : ((**فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ**)) . وَمِنْ بَيَانِهِ الْمُتَكَفِّلِ بِهِ مَا يُظْهِرُهُ اللَّهُ مِنْ مَعَانِيهِ عَلَى أَلْسِنَةِ أَصْفِيَائِهِ ، وَمِنْ حِكْمَتِهِ تَعَالَى أَنْ لَا يُجْرِيَ عَلَى أَلْسِنَةِ عُلَمَاءِ كُلِّ زَمَانٍ إِلَّا مَا يَلِيقُ بِأَهْلِ ذَلِكَ الزَّمَانِ وَنَعْنِي بِالْعُلَمَاءِ الْعَامِلِينَ الْوَارِثِينَ الْقَائِمِينَ بِحُجَّةِ اللَّهِ عَلَى الْعَالَمِينَ الَّذِينَ يَحْفَظُ اللَّهُ بِهِمْ هَذَا الدِّينَ ، حَتَّى يُبَلِّغُوهُ لِمَنْ بَعْدَهُمْ

لَا الْمُتَشَدِّقِينَ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا. فَإِنَّهَا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الشَّيَاطِينُ
لَا بِمَا فِيهِ انْحِلَالُ عُقْدَةِ الدِّينِ، لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ يَنْسَخُ مَا تُلْقِيهِ الشَّيَاطِينُ ثُمَّ يُحْكِمُ آيَاتِهِ.

الْفَصْلُ الْخَامِسُ
فِيمَا يُشْعِرُنَا بِتَعَلُّقِ سَائِرِ أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ بِالْمُكَلَّفِينَ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَآنٍ

وَمَهْمَا اعْتَبَرْنَا مَا بَيْنَ دَفَّتَيِ الْمُصْحَفِ كِتَابًا مِنَ اللَّهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ وَصَلَ إِلَيْنَا بِالْخُصُوصِ لَزِمَنَا أَنْ لَا نَحْمِلَ مَا أَوْعَدَ اللَّهُ أَوْ وَعَدَ بِهِ عَلَى غَيْرِنَا مِنَ الْأُمَمِ. فَمَهْمَا ثَبَتَ الِاسْتِحْقَاقُ فِي شَخْصٍ لِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ فَيَكُونُ هُوَ الْمَقْصُودُ نَفْسُهُ بِذَلِكَ الْخِطَابِ. وَهٰكَذَا فِي سَائِرِ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي وَالتَّرْغِيبَاتِ وَالتَّرْهِيبَاتِ، وَهٰذَا وَجْهُ كَوْنِ الْكِتَابِ إِلَيْنَا. وَأَمَّا كَوْنُ الْآيَةِ نَزَلَتْ فِي فُلَانٍ أَوْ فُلَانٍ، إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّخْصُ سَبَبٌ لِابْتِدَاءِ تَهَيُّئِ الْجِنْسِ الْمُسْتَحِقِّ لِذَلِكَ الْوَصْفِ أَوِ الْحُكْمِ. وَالْمُعْتَبَرُ مِنْ خِطَابِ اللَّهِ عُمُومُ اللَّفْظِ لَا خُصُوصُ السَّبَبِ. وَالْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ

مُتَسَاوِيَةٌ فِي تَعَلُّقِ الْخِطَابِ بِهَا لَيْسَتْ مُتَعَاقِبَةَ الْوُجُودِ كَتَعَاقُبِ الْأَجْسَامِ فَأَرْوَاحُ الْمُنَافِقِينَ مَثَلاً مِنْ عَهْدِ رَأْسِ الْمُنَافِقِينَ الْأَوَّلِينَ إِلَى خَاتِمِهِمْ يَشْمَلُهُمْ وَعْدُ الْمُنَافِقِينَ، فَتَكُونُ آيَةُ الْمُنَافِقِينَ نَزَلَتْ فِي كُلِّ فَرْدٍ مِنْ ذَلِكَ الْجِنْسِ. وَقِسْ عَلَى ذَلِكَ أَنْوَاعَ الْمُخَاطَبِينَ، وَإِلَّا كَانَ الْكَثِيرُ مِنْ أَلْفَاظِ التَّنْزِيلِ فِي حَيِّزِ التَّعْطِيلِ. وَإِنِّي لَا أَرَى مِنْ كِتَابِ اللَّهِ لَفْظاً مُعَطَّلاً لَمْ يَكُنْ مَقْرُونًا بِمُسْتَحِقِّهِ فِي كُلِّ زَمَانٍ إِنْ لَمْ نَقُلْ فِي كُلِّ آنٍ. وَالْمَعْنَى أَنَّ سَائِرَ أَلْفَاظِهِ دَائِرَةٌ بَيْنَ مُخَاطِبٍ وَمُخَاطَبٍ فِي كُلِّ حِينٍ وَاقِعَةٌ مَوْقِعَهَا مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانٍ. وَالْأَغْرَبُ مِنْ هَذَا أَنَّ الْخِطَابَ الْمُخْتَصَّ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَقِيقَةً قَدْ يَتَنَاوَلُ غَيْرَهُ مِنْ وَرَثَتِهِ عَلَى سَبِيلِ الْإِشَارَةِ مَجَازًا، وَأَمَّا مَا فِيهِ مِنَ التَّهْدِيدَاتِ وَنِسْبَةِ التَّقْصِيرِ لَهُ فَيَكُونُ لِوَارِثِهِ حَقِيقَةً، لِأَنَّهُ أَوْلَى بِالتَّقْصِيرِ. فَالْقُطْبُ الْمُحَمَّدِيُّ، أَوْ مَنْ هُوَ عَلَى قَلْبِ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ، إِذَا أَطْرَقَ سَمْعَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: «**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ**» أَوْ «**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ**»

لَا يَرَىٰ ذَلِكَ إِلَّا أَمْرًا مِنَ اللَّهِ، وَهُوَ الْمَقْصُودُ بِهِ فِي تَبْلِيغِ الشَّرَائِعِ. وَهَذِهِ هِيَ الْحِكْمَةُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - فِي عَدَمِ نِدَائِهِ فِي كِتَابِهِ الْمَجِيدِ بِاسْمِهِ كَأَنْ يَقُولَ: **يَا مُحَمَّدُ أَوْ يَا أَحْمَدُ**، كَنِدَائِهِ مَنْ تَقَدَّمَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ. إِنَّمَا جَاءَ النِّدَاءُ بِـ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ، يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ، يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ، يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ**. وَهَكَذَا لِيَتَنَاوَلَ وَرَثَتَهُ مِنْ بَعْدِهِ، الْمُبَلِّغِينَ عَنْهُ عَلَى سَبِيلِ الْإِشَارَةِ: الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَالْمُبَلِّغُونَ وَرَثَةُ الرُّسُلِ. أَلَا تَرَى أَنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا بَعَثَ مُبَلِّغِينَ عَنْهُ إِلَى أَنْطَاكِيَةَ مدينة سَمَّاهُمُ اللَّهُ رُسُلًا وَأَضَافَ إِرْسَالَهُمْ لِنَفْسِهِ فَقَالَ: «**إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ**». فَلَا مَانِعَ أَنْ يُنَادَى الْمُبَلِّغُ مِنَ الْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ عَلَى لِسَانِ الْقُرْآنِ بِذَلِكَ الِاسْمِ، وَيَكُونُ مَقْصُودًا بِهِ فِي عِلْمِ اللَّهِ. أَلَا تَرَى أَنَّهُ نَادَى مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي التَّوْرَاةِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْكُتُبِ بِمَا هُوَ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ كَقَوْلِهِ: «**يَا أَيُّهَا الْجَبَّارُ تَقَلَّدْ سَيْفَكَ**». وَهَذَا الْخِطَابُ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مُتَنَاوِلًا لِغَيْرِهِ فِي ذَلِكَ

الْعَصْرِ مَجَازًا مُدَّخَرًا لِلْمُصْطَفَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَقِيقَةً، وَالْحِكْمَةُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ فِي عَدَمِ نِدَاءِ الْأَنْبِيَاءِ بِغَيْرِ الْإِسْمِ الصَّرِيحِ لِعَدَمِ اسْتِمْرَارِ شَرَائِعِهِمْ، بِخِلَافِ شَرِيعَةِ نَبِيِّنَا الْأَحْمَدِيَّةِ، فَإِنَّهَا مُسْتَمِرَّةٌ وَالنِّدَاءُ فِيهَا يَعُمُّ كُلَّ وَارِثٍ، حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى الْمَهْدِيِّ، ثُمَّ لِعِيسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فَإِنَّ أَمْرَ اللَّهِ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمْرٌ لَهُمَا، وَخِطَابَهُ خِطَابٌ لَهُمَا، فَلِهَذَا جَاءَ النِّدَاءُ فِي التَّنْزِيلِ **بِيَا أَيُّهَا**، ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ الْمُبَلِّغَ الْحَقِيقِيَّ الْآنَ، وَقَبْلَ الْآنَ، وَبَعْدَ الْآنَ، لَيْسَ هُوَ إِلَّا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَنُورُهُ الْكَامِنُ فِي خُلَفَائِهِ هُوَ الَّذِي يَسْمَعُ النِّدَاءَ الْمُخْتَصَّ بِهِ. قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَى خُلَفَائِي». قَالُوا: مَنْ خُلَفَاؤُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟. قَالَ: «الَّذِينَ يُحْيُونَ سُنَّتِي وَيُعَلِّمُونَهَا عِبَادَ اللَّهِ». نَقَلَهُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ. وَالَّذِي يَزِيدُنَا شُعُورًا بِمَا قَدَّمْنَاهُ هُوَ عَدَمُ حَذْفِ كَلِمَةٍ قُلْ مِنَ التِّلَاوَةِ وَالرَّسْمِ، مَعَ أَنَّهَا لَيْسَتْ دَاخِلَةً فِي مَقُولِ الْقَوْلِ ضَرُورَةً، فَإِذَا قَالَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ: «**قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ**». فَالْمُتَبَادِرُ فَهْمُهُ أَنْ يَقُولَ: «**لَا أَمْلِكُ**

لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضُرًّا﴾، بِحَذْفِ كَلِمَةِ **قُلْ**، وَمَا أُثْبِتَتْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ إِلَّا لِأَنَّهَا فِعْلٌ مُتَّصِلٌ دَائِمُ التَّعَلُّقِ كَغَيْرِهِ مِنَ الْأَفْعَالِ، يَتَنَاوَلُ كُلَّ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْقَوْلَ، مَهْمَا فُهِمَ عَنِ اللَّهِ، وَنَعْنِي بِهِ الْوَارِثَ الْمُحَمَّدِيَّ وَلَوْ حُذِفَتْ كَلِمَةُ **قُلْ**، لَضَاعَ حَظُّنَا، أَوْ نَقُولُ فَهْمُنَا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ.

الْفَصْلُ السَّادِسُ

يَذْكُرُ فِيهِ أَنَّ أَهَمَّ شَيْءٍ يَعْتَبِرُهُ الْإِنْسَانُ فِي كِتَابِ اللَّهِ أَنْ يَرَاهُ وَاصِلًا إِلَيْهِ مِنْ حَضْرَةِ الرَّحْمَنِ

وَأَهَمُّ شَيْءٍ نَعْتَبِرُهُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إِذَا تَنَاوَلْنَاهُ هُوَ أَنْ نَرَاهُ وَاصِلًا إِلَيْنَا الْآنَ مِنْ حَضْرَةِ اللَّهِ جَلَّ ذِكْرُهُ عَلَى الْهَيْئَةِ الَّتِي هُوَ عَلَيْهَا بَيْنَ دَفَّتَيِ الْمُصْحَفِ وَعَلَى عُنْوَانِهِ: **ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ** وَالشَّاهِدُ فِي كَوْنِهِ وَاصِلًا إِلَيْنَا مِنَ اللَّهِ عَلَى تِلْكَ الْهَيْئَةِ، هُوَ مَا قَدَّمْنَاهُ فِي حَدِيثِ أَبِي جُمْعَةَ، وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ كِتَابَ اللَّهِ لَا يَأْتِي إِلَّا مِنَ اللَّهِ، وَلَا يُشْكِلُ عَلَيْكَ مِنْ أَنَّ جَمْعَ الْمُصْحَفِ وَتَنْظِيمَهُ عَلَى

الْهَيْئَةِ الْحَاضِرَةِ، وَبَعْثُهُ لِلْأَمْصَارِ هُوَ مِنْ أَثَرِ الصَّحَابَةِ عَلَيْهِمْ رِضْوَانُ اللَّهِ. نَعَمْ كَانَ ذَلِكَ، وَلَكِنَّهُمْ مُسَخَّرُونَ. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾. فَقَدْ تَوَلَّى اللَّهُ حِفْظَهُ كَمَا تَوَلَّى إِنْزَالَهُ، فَيَكُونُ هُوَ الْجَامِعُ لَهُ، وَالْمُنَظِّمُ لَهُ فِي الْحَقِيقَةِ عَلَى الْهَيْئَةِ السَّابِقَةِ فِي عِلْمِهِ، وَهَذَا بِاعْتِبَارِ تَرْتِيبِ السُّوَرِ مَعَ بَعْضِهَا هَلْ كَانَ ذَلِكَ تَوْفِيقًا، أَوْ بِاجْتِهَادٍ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَأَمَّا تَرَتُّبُ الْآيِ فِي سُوَرِهَا فَهُوَ بِوَحْيٍ مِنَ اللَّهِ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ الْأَثَرُ، وَانْعَقَدَ بِهِ الْإِجْمَاعُ. قَالَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ فِي مَا نَقَلَهُ الْجَلَالُ السُّيُوطِي عَنْهُ أَنَّ الَّذِي نَذْهَبُ إِلَيْهِ أَنَّ جَمِيعَ الْقُرْآنِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ وَأَمَرَ بِإِثْبَاتِهِ وَرَسْمِهِ وَلَمْ يَنْسَخْهُ وَلَا رَفَعَ تِلَاوَتَهُ بَعْدَ نُزُولِهِ هُوَ هَذَا الَّذِي بَيْنَ الدَّفَّتَيْنِ، الَّذِي حَوَاهُ مُصْحَفُ عُثْمَانَ، وَإِنَّهُ لَمْ يَنْقُصْ مِنْهُ شَيْءٌ، وَلَا زِيدَ فِيهِ شَيْءٌ، وَأَنَّ تَنْظِيمَهُ وَتَرْتِيبَهُ ثَابِتٌ عَلَى مَا نَظَّمَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَرَتَّبَهُ عَلَيْهِ رَسُولُهُ. قُلْتُ وَنَزَلَتْ الْأَنْوَارُ حَافَّةً بِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ حَوْلِهِ، مُوَصِّلَةً لِمَعَانِيهِ بِوَحْيٍ

مِنَ اللَّهِ لِلْقُلُوبِ الْمُسْتَحِدَّةِ . أَخْرَجَ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ مَعْقِلِ ابْنِ يَسَارٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: الْبَقَرَةُ سَنَمُ الْقُرْآنِ وَذُرْوَتُهُ نَزَلَ مَعَ كُلِّ آيَةٍ مِنْهَا ثَمَانُونَ مَلَكًا. أَوَ هَلْ تَرَى أَنَّ الْمَلَائِكَةَ النَّازِلَةَ إِلَى الْأَرْضِ مَعَ هَاتِهِ السُّورَةِ بَلَّغُوهَا وَتَرَكُوهَا بِالْأَرْضِ سُدًى ، كَلَّا لَنْ يَزَالَ كِتَابُ اللَّهِ بِعِنَايَةِ اللَّهِ مَحْفُوفًا مُشَيَّعًا بِالْمَلَائِكَةِ، إِلَى أَنْ يَرِثَ اللَّهُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا، وَإِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ، وَلَا يُوهِمُكَ عَبَثُ الشَّيَاطِينِ بِبَعْضِ أَجْزَائِهِ فَإِنَّ حِفْظَهُ وَتَشْيِيعَهُ فِي الْجُمْلَةِ مِنْ حَيْثُ وُجُودِهِ بَيْنَ أَفْرَادِ الْإِنْسَانِ ، وَأَمَّا كَوْنُ الْبَقَرَةِ سَنَمُهُ وَذُرْوَتُهُ دَلِيلٌ عَلَى تَنْظِيمِ اللَّهِ لَهُ فِي سَابِقِ عِلْمِهِ وَعِلْمِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهَيْئَتِهِ الْحَاضِرَةِ.

تَنْبِيهٌ مُهِمٌّ

فَمَنْ أَرَادَ السَّلَامَةَ أَنْ لَا يَشْرَعَ فِي هَذَا التَّفْسِيرِ حَتَّى يَمُرَّ عَلَى فُصُولِهِ حَسَبَ تَرْتِيبِهَا، لِأَنَّهَا كَالسُّلَّمِ لِتَلَقِّي أَسْرَارِهِ وَلْيَتَدَرَّعْ

بِحُسْنِ الظَّنِّ مَا أَمْكَنَهُ ، وَلَا يَقِسْ مَا يَجِدُ فِيهِ عَلَى مَا عِنْدَهُ ، فَإِنَّهُ أَبْعَدُ مِنَ التَّطَابُقِ ، لِأَنَّ كَلَامَ الرُّوحِ يَبِينُ كَلَامَ الْبَدَنِ ، فَأَكْثَرُهُ جَاءَ بِلِسَانِ الْخُصُوصِيَّةِ الَّذِي لَيْسَ لَنَا فِيهِ كَبِيرُ اكْتِسَابٍ ، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ قَبِيلِ التَّوَجُّهِ وَالتَّلَقِّي مِنْ حَضْرَةِ اللَّهِ ، وَالْمَعْنَى أَنَّهُ لَيْسَ هُوَ مِنْ قَبِيلِ التَّكَلُّفِ وَالتَّعَسُّفِ ، وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي مِنَ التَّقْصِيرِ ، وَلَا أَنْسَاهَا مِنْ وُجُودِ الْخَيْرِ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ . ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّهُ ظَهَرَ لِي فِي تَرْتِيبِهِ أَنْ نَذْكُرَ شَيْئًا مِنَ التَّفْسِيرِ الَّذِي هُوَ الْمَقْصُودُ الْعَامُّ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ، ثُمَّ نَذْكُرَ مَا يُسْتَنْبَطُ مِنْ أَحْكَامِهِ ، وَهُوَ أَخَصُّ مِمَّا قَبْلَهُ ، ثُمَّ نَأْتِي بِشَيْءٍ مِمَّا تَتَوَسَّعُ فِيهِ الْإِشَارَةُ عَلَى مُصْطَلَحِ أَهْلِ اللَّهِ ، ثُمَّ نَذْكُرَ كَلَامًا أَخَصَّ مِنْهُ ، مُعَبِّرًا عَنْهُ بِلِسَانِ الرُّوحِ وَهِيَ أَنْهَارٌ أَرْبَعَةٌ ، تَرَاهُمْ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ .

اَلْكَلَامُ فِي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَقُولُ أَنَّ افْتِتَاحَ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ بِالْبَسْمَلَةِ لَفْظًا وَخَطًّا ، فِيهِ مَا يُشْعِرُنَا بِلُطْفِ اللَّهِ بِعِبَادِهِ ، وَإِنْ مَعَ إِعْرَاضِهِمْ عَنْهُ وَذَلِكَ

أَنَّ التَّالِيَ أَوِ الْقَارِئَ لِكِتَابِ اللَّهِ مَهْمَا يُرْسِلْ طَرْفَهُ وَيُحَرِّكْ لِسَانَهُ
إِلَّا وَيَلْتَصِقُ بِبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ فَيَكُونُ ذَاكِرًا لِلِاسْمِ
مُتَبَرِّكًا بِهِ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ، قَصَدَ أَوْ لَمْ يَقْصِدْ، حَبَّ أَمْ كَرِهَ بِخِلَافِ
مَا لَوْ لَمْ نُؤْمَرْ بِرَسْمِهَا لَتَشَعَّبَتِ الْمَقَاصِدُ وَاسْتَحْكَمَتِ الْغَفَلَاتُ
فَقَدْ يَنْسَاهَا قَوِيُّ الْإِيمَانِ، وَيَتَعَلَّلُ الْمُنَافِقُ بِالنِّسْيَانِ. وَلَمَّا تَعَيَّنَتْ
كِتَابَةً وَقِرَاءَةً رُفِعَ الِاحْتِمَالُ. ثُمَّ إِنَّ الْحِكْمَةَ فِي مَشْرُوعِيَّتِهَا عِنْدَ كُلِّ
فِعْلٍ ذِي بَالٍ يَقْضِي بِرَفْعِ امْتِيَازِ الْجَبَابِرَةِ، حَتَّى لَا يَبْقَى جَبَرُوتٌ لِأَحَدٍ
عَلَى الْآخَرِ، لِأَنَّ الْأُمَمَ غَيْرَ الْإِسْلَامِ كَانَتْ قَدِيمًا وَحَدِيثًا تَتَبَرَّكُ بِذِكْرِ
مُلُوكِهَا وَأُمَرَائِهَا، حَتَّى إِذَا أَرَادَ أَحَدُهُمْ أَنْ يَتَنَاوَلَ مَشْرُوبًا مَثَلًا
يَتَنَاوَلُهُ بِاسْمِ الْمَلِيكِ وَالْأَمِيرِ، وَبِالْأَخَصِّ إِذَا كَانَ بِحَضْرَتِهِ، وَلَمَّا
جَاءَ الْإِسْلَامُ بِالتَّسَاوِي بَيْنَ أَفْرَادِ الْإِنْسَانِ، وَأَنْ لَا فَضْلَ لِأَحَدٍ عَلَى أَحَدٍ
إِلَّا بِتَقْوَى اللَّهِ. أَمَرَ الشَّارِعُ أَنْ لَا يُذْكَرَ إِسْمٌ عِنْدَ فِعْلٍ ذِي بَالٍ إِلَّا
إِسْمُ اللَّهِ، إِلَّا إِذَا كَانَ الْفِعْلُ غَيْرَ مَأْذُونٍ فِيهِ مِنْ جِهَةِ الشَّرْعِ، فَجُلَّ
إِسْمُ اللَّهِ أَنْ يَكُونَ ذَرِيعَةً لِفِعْلِهِ، وَالْحِكْمَةُ فِي ذَلِكَ لِكَوْنِهِ تَعَالَى

لَمْ يَأْذَنْ فِيهِ، فَكَأَنَّهُ يَقُولُ لِفَاعِلِهِ: أَنَا مَا شَرَعْتُهُ لَكَ، وَلَا أَذِنْتُ فِيهِ، فَأَنْتَ شَرَعْتَهُ لِنَفْسِكَ، فَافْعَلْهُ بِاسْمِكَ لَا بِاسْمِي. فَمَنْ شَرَعَ شَرْعًا نُسِبَ إِلَيْهِ. ثُمَّ إِنَّ الْبَاءَ فِي بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ جَاءَتْ لِلْإِلْصَاقِ، فَهِيَ مُلْتَصِقَةٌ بِاللَّهِ، لِأَنَّ الِاسْمَ غَيْرُ فَاصِلٍ بَيْنَهُمَا، لِكَوْنِهِ عَيْنَ الْمُسَمَّى عِنْدَ الْقَوْمِ وَجُمْهُورِ الْأَشَاعِرِيَّةِ فَصَارَ الِابْتِدَاءُ بِاللَّهِ، فَمِنْهُ بَدَأَ الْأَمْرُ، وَإِلَيْهِ يَعُودُ.

الِاسْتِنْبَاطُ: يُسْتَخْرَجُ مِنَ الْبَسْمَلَةِ أَرْبَعَةُ أَحْكَامٍ:

الْحُكْمُ الْأَوَّلُ: تَعْيِينُ الِابْتِيَانِ بِهَا عَلَى كُلِّ كَاتِبٍ وَقَارِئٍ، مَهْمَا كَانَ الْمَشْرُوعُ فِيهِ مَحْمُودًا وَيُؤْخَذُ مِنْ تَصْدِيرِهِ تَعَالَى بِهَا أَوَّلَ الْكِتَابِ

الْحُكْمُ الثَّانِي: فَهِمْنَا عَنْهُ تَعَالَى أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُثْنَى عَلَيْهِ مِنْ عِبَادِهِ بِالْجَمَالِيَّةِ، أَكْثَرَ مِنْهَا مِنْ صِفَةِ الْجَلَالِ، وَيُؤْخَذُ مِنْ تَصْدِيرِهِ بِالِاسْمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ نَعْتًا لِلذَّاتِ.

الْحُكْمُ الثَّالِثُ: عَلِمْنَا أَنَّ بَيْنَ الِاسْمَيْنِ بَوْنًا، وَإِنْ مَعَ اشْتِقَاقِهِمَا مِنْ صِيغَةٍ وَاحِدَةٍ، وَإِلَّا كَانَ عَطْفُ الرَّحِيمِ عَلَى الرَّحْمَنِ مِنْ قَبِيلِ

التَّكْرَارِ .

الْحُكْمُ الرَّابِعُ : عَلِمْنَا أَنَّ الْإِسْمَ هُوَ عَيْنُ الْمُسَمَّى ، وَإِلَّا لَمَا صَحَّتْ الْإِسْتِعَانَةُ بِهِ دُونَ مُسَمَّاهُ الَّذِي هُوَ اللَّهُ .

الْإِشَارَةُ : إِنَّ الْتِصَاقَ الْبَاءِ بِاسْمِ الْجَلَالَةِ مَعَ أَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ أُبْنِيَّتِهِ فِيهِ مَا يُشْعِرُنَا بِأَنَّ جَمِيعَ مَا فِي الْوُجُودِ عَلَى اخْتِلَافِ الْحَقَائِقِ وَتَبَايُنِ الطَّرَائِقِ ، إِلَّا وَهُوَ مُلْتَصِقٌ بِاللَّهِ ، وَلَا تَفْهَمْ أَنَّهُ مُمَاسٌّ لَهُ فَجَلَّ رَبُّنَا أَنْ يُمَاسَّهُ شَيْءٌ مِنَ الْحَوَادِثِ ، وَإِنْ لَتَلَاشَى الْحَادِثُ لِعَدَمِ ثُبُوتِهِ ، مَعَ مَنْ لَهُ وَصْفُ الْقِدَمِ ، إِنَّمَا نَعْنِي بِهِ التَّعَلُّقَ وَالتَّحَقُّقَ وَالْمَعْنَى إِنَّهُ قَائِمٌ بِاللَّهِ لَا بِنَفْسِهِ ، فَوُجُودُهُ مُسْتَعَارٌ مِنْ وُجُودِ مُوجِدِهِ عَلَى حَدِّ مَا قِيلَ :

مَنْ لَا وُجُودَ لِذَاتِهِ مِنْ ذَاتِهِ ... فَوُجُودُهُ لَوْلَاهُ عَيْنُ مُحَالِ

وَأَمَّا اسْتِطَالَةُ الْبَاءِ وَخُرُوجُهَا عَنْ مُقْتَضَى عَادَتِهَا فَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا لِاتِّصَالِهَا بِالْإِسْمِ ، فَالْمُتَّصِلُ بِالْمُسَمَّى مِنْ أَهْلِ اللَّهِ أَوْلَى بِالْإِرْتِفَاعِ عَلَى أَبْنَاءِ جِنْسِهِ ، وَأَمَّا نِيَابَتُهَا عَنِ الْأَلِفِ الْمَحْذُوفَةِ مِنَ الْإِسْمِ تَشِيرُ إِلَى

نِيَابَةِ الْوَارِثِ الْمُحَمَّدِيِّ عَنِ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ . يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ، وَمَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ . وَأَمَّا مَجِيءُ الْبَسْمَلَةِ فِي ذُرْوَةِ الْكِتَابِ وَسَنَمِهِ يُشِيرُ إِلَى ارْتِفَاعِهِ تَعَالَى وَاسْتِوَائِهِ عَلَى عَرْشِهِ ، وَلَمَّا كَانَ الِاسْتِوَاءُ عَلَى غَيْرِ مَا تَفْهَمُهُ الْعُمُومُ مِنَ الِاحْتِوَاءِ، بَلْ هُوَ مَوْجُودٌ فِي كُلِّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِ الْوُجُودِ . جَاءَتِ الْبَسْمَلَةُ عَلَى ذُرْوَةِ كُلِّ سُورَةٍ، طَالَتْ أَمْ قَصُرَتْ، وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ . ثُمَّ أَنَّ انْدِرَاجَ جَمِيعِ مَا فِي الْكِتَابِ تَحْتَ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ عَلَى مَا جَاءَ فِي بَعْضِ الْأَثَرِ يُشِيرُ إِلَى انْطِوَاءِ جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ فِي وُجُودِ مُوجِدِهَا، وَالْمَعْنَى أَنَّ مَا فِيهَا مُفَرَّعٌ عَمَّا فِيهِ ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ . وَأَمَّا تَقْدِيمُ إِسْمِ الْجَلَالَةِ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى يُشِيرُ إِلَى تَخْصِيصِ الذَّاتِ بِالسَّابِقِيَّةِ، وَكُمُونِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ فِي حَالِ الْكَنْزِيَّةِ . وَأَوَّلُ إِسْمٍ جَاءَ بِالْبَيَانِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا وَلِهَذَا جَاءَ وَصْفًا لِلَّهِ فِي الْبَسْمَلَةِ دُونَ سَائِرِ الْأَسْمَاءِ ، وَلَوْلَا سَابِقِيَّتُهُ فِي الظُّهُورِ لَمَا جَازَ رُتْبَةَ الِاسْتِوَاءِ دُونَ

الرحمن على العرش استوى فهو السابق من جملة الاسماء دون

غَيْرِهِ مِنْ سَائِرِ الْأَسْمَاءِ الْجَلَالِيَّةِ وَالْجَمَالِيَّةِ، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ الْقُدْسِيَّةِ، الَّذِي مَعْنَاهَا الرَّحْمَةُ سَابِقَةٌ لِلْغَضَبِ. فَبِاسْتِوَاءِ **الرَّحْمَنِ** عَلَى الْأَكْوَانِ تَنَعَّمَ الْكَافِرُ وَتَمَرَّدَ الشَّيْطَانُ.

وَأَمَّا اسْمُهُ **الرَّحِيمُ** فَهُوَ آخِرُ التَّنْزِيلَاتِ، فَأَثَرُهُ مُسْتَتِرٌ فِي آثَارِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ فِي الْحَدِيثِ **الرَّحِيمُونَ يَرْحَمُهُمُ اللَّهُ**، وَمَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ، فَبِرَحْمَتِهِ فِيهِمُ اسْتَوْجَبُوا الشُّكْرَ، وَالشُّكْرُ لِلَّهِ. وَأَمَّا كَوْنُ الْبَاءِ فِي الْبَسْمَلَةِ تَطْلُبُ مُتَعَلِّقًا وَأَنَّهُ فِعْلٌ وَأَنَّهُ مَحْذُوفٌ، فَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى طَلَبِ الصِّفَةِ مُتَعَلِّقًا يَسْتَوْجِبُ ظُهُورَهَا وَأَنَّ ذَلِكَ الْمُتَعَلِّقَ يَكُونُ فِعْلًا لِلذَّاتِ، غَيْرَ أَنَّهُ يَكُونُ مَحْذُوفًا، أَيْ مُقَدَّرًا فَلَا وُجُودَ لَهُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ مَعَ مُوجِدِهِ، وَهَذَا هُوَ الْفَرْقُ بَيْنَ الْوُجُودَيْنِ وَهَلْ يُقَدَّرُ مُقَدَّمًا أَوْ مُؤَخَّرًا، فَذَلِكَ بِاعْتِبَارِ الْمُتَوَجِّهِينَ لِلَّهِ، فَالْمُسْتَغْرِقُ فِي عَظَمَةِ اللَّهِ لَا يَرَاهُ الْبَتَّةَ، وَلَا يَصِفُهُ، لَا بِوُجُودٍ وَلَا بِعَدَمٍ، فَضْلًا عَلَى أَنْ يَرَاهُ مُقَدَّمًا أَوْ مُؤَخَّرًا. وَأَمَّا الْمُحَصِّلُ عَلَى رُتْبَةِ الشُّعُورِ فَهُوَ يُقَدِّرُهُ مُؤَخَّرًا، لِأَنَّهُ يَرَاهُ تَعَالَى قَبْلَ رُؤْيَةِ الْفِعْلِ، فَيَسْتَدِلُّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ

وَأَمَّا السَّائِرُ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ تَقْدِيرِهِ وَرُؤْيَتِهِ قَبْلَ رُؤْيَةِ فَاعِلِهِ، لِيَتَوَصَّلَ بِهِ إِلَيْهِ، وَشَتَّانَ بَيْنَ مَنْ يُسْتَدَلُّ بِهِ، وَبَيْنَ مَنْ يَسْتَدِلُّ عَلَيْهِ.

لِسَانُ الرُّوحِ: إِنَّ الضَّمِيرَ السَّاكِنَ الْمَفْهُومَ مِنْ خَفْضَةِ الْبَاءِ الْمُؤَوَّلِ فِي بَعْضِ الْأَلْسُنِ عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ السِّرُّ الْمَصُونُ، بِي كَانَ مَا كَانَ، وَبِي يَكُونُ مَا يَكُونُ هُوَ رَاجِعٌ لِصِفَةِ الْفِعْلِيَّةِ الْمُعَبَّرِ عَنْهَا بِالْقُبْضَةِ النُّورِيَّةِ فِي أَلْسِنَةِ الصُّوفِيَّةِ، فَهِيَ الْقَائِلَةُ بِحَضْرَةِ الْقِدَمِ وَالْكَنْزِ الْمَطْلَسِمِ عَلَى لِسَانِ الْبَاءِ بِالِاسْمِ الْأَعْظَمِ، فَبِي إِسْمُ اللَّهِ، فَأَنْتَ أَظْهَرْتَنِي، كَمَا أَنَا أَظْهَرْتُكَ، فَكَمَا أَنَّكَ رَفَعْتَنِي رَفَعْتُكَ، وَعَرَّفْتَنِي عَرَّفْتُكَ، وَأَنْشَدَ لِسَانُ حَالِهَا قَائِلًا:

فَلَوْلَاكَ مَا كُنَّا وَلَوْلَايَ لَمْ تَكُنْ ... فَكُنْتَ وَكُنَّا وَالْحَقِيقَةُ لَا تُدْرَى

فَإِيَّاكَ نَعْنِي بِالْمَعَزَّةِ وَالْغِنَى ... وَإِيَّايَ نَعْنِي بِالْفَقِيرِ وَلَا فَقْرَى

فَالْقَدِيرُ بِالْمَقْدُورِ قَادِرٌ، وَالْبَصِيرُ بِالْمَبْصُورِ بَاصِرٌ. وَهَكَذَا النَّضَائِرُ. وَلَمَّا كَانَتِ الْأَفْعَالُ مَظْهَرًا لِلْأَسْمَاءِ، وَالصِّفَاتِ دُونَ الذَّاتِ الْتَصَقَتِ الْبَاءُ بِالِاسْمِ دُونَ الْمُسَمَّى الَّذِي هُوَ اللَّهُ، لِتَكُونَ إِشَارَتُهَا عَائِدَةً عَلَيْهِ فِي

الإظهارِ . وَأمّا الذاتُ فهِيَ الّتي أوجبتْ لَهَا الإضمارَ، لأنَّهُ تعَالى ظاهِرٌ بذَاتِهِ، مَالَمْ يحتَبِرِ الفعْلُ، وَإلاَّ كَانَ بَاطِنًا بذَاتِهِ، ظَاهِرًا بِصِفَاتِهِ.

فَاتِحَةُ الكِتَاب

سَبْعُ آيَاتٍ وَتسَمَّى أمُّ الكِتَابِ أيضًا

وَفي كَوْنِ البَسْمَلَةِ آيَةٌ مِنهَا أوْهِيَ آيَةٌ مِنْ كُلِّ سُورَةٍ، أوْلَيسَتْ آيَةً إلاّ في سُورَةِ النَّمْلِ، أوغَيرِذَلِكَ اختَلفَتِ الرِّوَايَاتُ، وَالأوْلى عدَمُ القَطْعِ بذَلِكَ، وَالإتيَانُ بِهَا في أوّلِ الفَاتِحَةِ في الصّلاةِ احتِيَاطًا، ثُمَّ أنَّ الإضَافَةَ في تَسْمِيَتِهَا على مَعْنَى اللامِ أيْ فَاتِحَةٌ لِلكِتَابِ، وَلَوْكَانَتِ الإضَافَةُ عَلَى مَعْنَى مِنْ لَصَارَتِ المَعْنَى فَاتِحَةٌ مِنَ الكِتَابِ، وَالحَالَةُ أنَّ الكِتَابَ مِنهَا لاشْتِمَالِهَا عَلَى مَعَانِيهِ، وَإذَا قُلْنَا هِيَ فَاتِحَتُهُ وَأُمٌّ لَهُ لَزِمَ أنْ تكُونَ خَارِجَةً عَلَيهِ خُرُوجَ الأمِّ عَلَى الإبْنِ ضَرُورَةً، وَلِهَذَا لَمْ تُرْسَمْ فِي المُصْحَفِ عِنْدَ بَعْضِ الصَّحَابَةِ، وَهُوَغَيرُ مُتَنَاوَلٍ لِلفِكْرِ العَامِّ مِنْ جِهَةِ كَوْنِهَا خَارِجَةً عَنْهُ مَوْجُودَةً فِيهِ.

الإشَارَةُ: فَذَاتُ البَارِي جَلَّ ذِكْرُهُ بَائِنَةٌ عَنِ الكَوْنِ مَوْجُودَةٌ فِيهِ

فَبَيْنُونِيَّتُهَا عَنْهُ مِنْ حَيْثُ الرُّتْبَةِ التَّنْزِيهِيَّةِ وَالْكَيْنُونِيَّةِ مِنْ حَيْثُ الْقَيُّومِيَّةِ وَلَا تَقُلْ بِانْفِرَادِ أَحَدِ الشِّقَّيْنِ، لِأَنَّ الْأَوَّلَ مَحَطُّ الِانْفِصَالِ، وَالثَّانِي مَظَنَّةُ الِاتِّصَالِ، وَكِلَاهُمَا مُحَالٌ لِعَدَمِ الْمُنْفَصِلِ عَنْهُ وَالْمُتَّصِلِ بِهِ.

وَلَا يُوهِمُكَ وُجُودُ الظِّلَالِ، فَالْمُخَيَّلُ لَا يُثَنَّى بِوُجُودِ الْخَيَالِ، فَكُلُّ شَيْءٍ يُشْفَعُ بِمِثْلِهِ وَيُضَمُّ لِشَكْلِهِ، وَالْحَقُّ لَيْسَ كَمِثْلِهِ.

الْحِكْمَةُ: إِنَّ تَصَدُّرَ الْفَاتِحَةِ فِي أَوَّلِ الْكِتَابِ فِيهِ رَحْمَةٌ مِنَ اللَّهِ بِالْقَارِئِ، وَتَعْلِيمٌ وَتَلْقِينٌ وَتَوْقِيفٌ لِلْعَبْدِ عَلَى خُطَّةِ الْأَدَبِ لِيَقُومَ بِمَا وَجَبَ عَلَيْهِ مِنَ الشُّكْرِ، حَيْثُ صَيَّرَهُ أَهْلًا لِمُوَاصَلَتِهِ تَعَالَى، وَهِيَ نِعْمَةٌ لَا يُوَازِنُهَا شُكْرٌ، وَكَانَ الْعَبْدُ أَبْعَدَ مِنْ أَنْ يَتَفَطَّنَ لِمِثْلِ ذَلِكَ، وَحَتَّى لَوْ تَنَبَّهَ، لَمْ يَدْرِ مَا هِيَ صِيغَةُ الْحَمْدِ، وَمَا هِيَ الْكَيْفِيَّةُ الَّتِي تُطْلَبُ مِنْهُ عِنْدَ تَنَاوُلِ الْكِتَابِ وَالْوُقُوفِ مَعَ اللَّهِ فِي حَالَةِ الِاقْتِرَابِ، فَجَاءَتِ الْفَاتِحَةُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى كَافِلَةً بِجَمِيعِ ذَلِكَ، وَأَجْرَاهَا اللَّهُ عَلَى لِسَانِ كُلِّ مُتَنَاوِلِ الْكِتَابِ، قَصَدَ أَوْ لَمْ يَقْصِدْ، فَهُوَ آخِذٌ بِحَظٍّ مِنَ الشُّكْرِ عَلَى كُلِّ حَالٍ، فَإِنَّهُ أَوَّلُ مَا يُجْرِيهِ اللَّهُ عَلَى لِسَانِهِ أَنْ يَخُصَّهُ تَعَالَى

بِجَمِيعِ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ يَعْتَرِفُ لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ، وَأَنَّ لَا رَبَّ سِوَاهُ فِي جَمِيعِ الْعَالَمِينَ عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ الْإِضَافَةُ. وَلَمَّا كَانَ الْمَرْبُوبُ قَدْ يَعْتَرِفُ لِرَبٍّ بِرُبُوبِيَّتِهِ عَلَيْهِ بِدُونِ مَيْلٍ وَلَا حُنُوٍّ عَلَيْهِ، فَاسْتَجْلَبَهُ تَعَالَى وَاسْتَعْطَفَهُ بِحَنَانِهِ وَلُطْفِهِ بِأَنْ قَالَ لَهُ إِنَّ الرَّبَّ الَّذِي أَنْتَ مَرْبُوبٌ مِنْ أَجْلِهِ رَحْمَنٌ رَحِيمٌ، لِتَتَعَلَّقَ الْعُبُودِيَّةُ بِالرُّبُوبِيَّةِ تَعَلُّقَ رَغْبَةٍ لَا رَهْبَةٍ، وَلَمَّا اسْتَوْثَقَتْ مِنْ حَضْرَةِ التَّكْرِيمِ، وَاسْتَوْطَنَتْ بَيْنَ الِاسْمَيْنِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ خَشِيَ تَعَالَى أَنْ يَغْمُرَهَا مِنَ الرَّحَمَاتِ مَا يُخْرِجُهَا مِنْ مُقْتَضَى التَّعَبُّدَاتِ، فَأَوْقَفَهَا تَعَالَى عِنْدَ مَرْكَزِ الِاعْتِدَالِ فَاسْتَجْلَبَهَا بِالْجَمَالِ وَهَدَّدَهَا بِالْجَلَالِ، فَأَخَذَتْ حَظًّا مِنَ التَّمْكِينِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ، وَبِمَا أَجْرَاهُ عَلَى لِسَانِهَا مِنْ صِفَةِ الْعَدْلِ وَأَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ يَوْمِ الْفَصْلِ، فَلَزِمَ بِالطَّبْعِ أَنْ تَلْتَجِئَ إِلَى حِصْنٍ حَصِينٍ فَلَقَّنَهَا تَعَالَى أَنْ تَقُولَ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ. فَبِالشِّقِّ الْأَوَّلِ تُقَاوِمُ الْعَدْلَ، وَبِالثَّانِي تَسْتَوْجِبُ الْفَضْلَ. وَلَمَّا كَانَ الشِّقُّ الْأَوَّلُ لَا يَقُومُ بِانْفِرَادِهِ، لِأَنَّهُ فِي الْغَالِبِ مَعْلُولٌ. وَالشِّقُّ الثَّانِي

مُتَعَذِّرُ الْحُصُولِ، وَفِي الْغَالِبِ يَكُونُ دَعْوَةً بِاللِّسَانِ، وَالدَّعْوَةُ تَحْتَاجُ إِلَى بَيَانِ أَلْهَمَهَا تَعَالَى أَنْ تَسْأَلَ الْهِدَايَةَ إِلَى ذَلِكَ السَّبِيلِ الْقَوِيمِ بِقَوْلِهِ إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، وَلَمَّا كَانَ الْعَبْدُ قَدِ اخْتَرَعَ لِنَفْسِهِ صِرَاطًا فَقَيَّدَهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ. فَاتَّضَحَ أَنَّ الصِّرَاطَ الْمَسْؤُولَ فِي السُّورَةِ لَا يَكُونُ إِلَّا بَيْنَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَمِنْ تَمَامِ لُطْفِهِ تَعَالَى بِالْعَبْدِ أَنْ حَذَفَ كَلِمَةَ قُلْ مِنَ الْفَاتِحَةِ جَرْيًا عَلَى خِلَافِ عَادَتِهِ مِنْ تَصْدِيرِهَا فِي أَوَائِلِ الْخِطَابِ، كَقَوْلِهِ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ فِي غَيْرِ الْفَاتِحَةِ. وَكُلُّ هَذَا لِيَكُونَ الْعَبْدُ هُوَ الْحَامِدَ حَقِيقَةً، قَائِلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ، حَالَةَ وُقُوفِهِ مَعَ اللَّهِ، أَوْ حَالَةَ تَنَاوُلِ الْكِتَابِ بِخِلَافِ مَا لَوْ جَاءَ فِي أَوَّلِهَا قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ.

الْإِشَارَةُ: تُفِيدُ أَنَّ الْعِبَادَةَ عُبُودَةٌ، وَأَنَّ الْحَقَائِقَ فِي الشَّرَائِعِ مَوْجُودَةٌ وَهِيَ سَرِيرَةٌ خُصِّصَتْ بِالْخَفَى تَدِقُّ عَنِ الْبَصَائِرِ فَضْلًا عَنِ الْأَبْصَارِ وَهِيَ الَّتِي تَصِحُّ الْوُقُوفُ مَعَ اللَّهِ لِأَحَدٍ وَإِنْ كَانَ يَتَوَاجَدُ، وَتَنْفِيهِ عَنِ

الآخِرِ، وَإِنْ كَانَ يَتَعَبَّدُ، وَلَوْلَا أَنَّ فِي الصَّلَاةِ غَايَةً، وَفِي السَّيْرِ نِهَايَةً مَا أَجْرَى اللَّهُ عَلَى لِسَانِ الْعَبْدِ وَهُوَ فِي الصَّلَاةِ أَنْ يَسْأَلَ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، فَفَهِمْنَا مِنْ هَذَا أَنَّ فِعْلَ الْجَوَارِحِ لَيْسَ هُوَ بِالْغَايَةِ كَافِلٌ وَإِلَّا كَانَ الْمَسْؤُولُ مِنْ قَبِيلِ تَحْصِيلِ الْحَاصِلِ.

التَّفْسِيرُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. الْحَمْدُ هُوَ الثَّنَاءُ بِالْجَمِيلِ عَلَى مَا يَسْتَوْجِبُهُ، وَالْأَلِفُ وَاللَّامُ فِي الْحَمْدِ لِلْجِنْسِ، وَاللَّامُ فِي لِلَّهِ لِلِاسْتِحْقَاقِ فَتَصِيرُ الْمَعْنَى أَنَّ الْحَمْدَ مِنْ حَيْثُ هُوَ، وَعَلَى أَيِّ لِسَانٍ بَرَزَ رَاجِعٌ لِلَّهِ، شَعَرَ الْحَامِدُ أَوْ لَمْ يَشْعُرْ، فَيَكُونُ شُكْرُكَ زَيْدًا لِكَرَمِهِ، وَمَدْحُكَ اللُّؤْلُؤَ لِصَفَائِهِ رَاجِعٌ لِلَّهِ، وَيَكُونُ هُوَ الْمَحْمُودَ تَعَالَى بِكُلِّ لِسَانِ الْمَعْبُودِ بِكُلِّ جَنَانٍ، لِأَنَّ الْجَمَالَ مِنْ حَيْثُ هُوَ مُسْتَعَارٌ مِنْ جَمَالِهِ، فَلَا يَرْجِعُ الْحَمْدُ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ إِلَّا إِلَيْهِ، وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، طَوْعًا أَوْ كُرْهًا، وَلِهَذَا يُقَالُ: لَوْ حَمِدُوا، وَأَيَّ شَيْءٍ حَمِدُوا، مَا حَمِدُوا غَيْرَهُ. وَلَوْ عَبَدُوا، وَأَيَّ شَيْءٍ عَبَدُوا، مَا عَبَدُوا غَيْرَهُ. ثُمَّ أَنَّ إِسْمَ الْجَلَالَةِ عَالَمٌ عَلَى الذَّاتِ الْمُسْتَحِقَّةِ لِجَمِيعِ الْمَحَامِدِ، وَلِهَذَا كَانَ الْحَمْدُ لَهُ لَا لِغَيْرِهِ مِنَ الْأَسْمَاءِ

لِأَنَّ إِسْمَ الصِّفَةِ لَا يَسْتَوْجِبُ سَائِرَ الْمَحَامِدِ مِنْ كُلِّ الْوُجُوهِ كَمَا يَسْتَوْجِبُهُ إِسْمُ الذَّاتِ، وَأَمَّا إِسْمُ الرَّبِّ فَهُوَ اللَّائِقُ بِالْعَالَمِينَ مِنْ غَيْرِهِ، فَلِهَذَا أُضِيفَ لَهَا، فَهُوَ كَافِلٌ بِتَرْبِيَتِهَا كَيْفَمَا تَنَوَّعَتْ، وَحَيْثُمَا كَانَتْ وَانْتَشَرَتْ وَمِنْ رَأْفَةِ هَذَا الْإِسْمِ وَتَرْبِيَتِهِ لِلْمَوْجُودِ أَنَّهُ يَشْتَغِلُ بِالْعَبْدِ، حَتَّى كَأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ عَبْدٌ سِوَاهُ، مَعَ أَنَّ الْعَبْدَ يَغْفَلُهُ وَيُخَالِفُهُ، حَتَّى كَأَنَّ لَهُ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقَةٌ، وَلَوْ تَأَمَّلَ تَرْبِيَتَهُ لَهُ مِنْ حَيْثُ انْفِصَالُهُ مِنْ صُلْبِ أَبِيهِ نُطْفَةً إِلَى رَحِمِ أُمِّهِ سُلَالَةً، إِلَى أَنْ صَارَ مُضْغَةً، ثُمَّ عَلَقَةً، ثُمَّ وَثُمَّ إِلَى أَنْ صَارَ سَمِيعًا بَصِيرًا لَقَالَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ. ثُمَّ أَنَّ الْعَالَمِينَ جَمْعُ عَالَمٍ، وَهُوَ عِبَارَةٌ عَمَّا سِوَى اللَّهِ فِي الْجُمْلَةِ، وَمَجِيئُهُ بِهَذِهِ الصِّيغَةِ يُفِيدُنَا أَنَّ لَهُ تَعَالَى عَوَالِمُ لَا غَايَةَ لَهَا مِنْ جِهَةِ الْكَثْرَةِ. قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى ثَمَانِيَةَ عَشَرَ أَلْفِ عَالَمٍ كَعَالَمِكُمْ هَذَا. وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، إِنَّ لِلَّهِ أَرْبَعِينَ أَلْفِ عَالَمٍ، الدُّنْيَا مِنْ مَشْرِقِهَا إِلَى مَغْرِبِهَا عَالَمٌ وَاحِدٌ. ذَكَرَهُ السَّبْزَخِيتِي. وَقَالَ كَعْبُ الْأَحْبَارِ مَا يُحْصِي عَدَدَ الْعَوَالِمِ إِلَّا اللَّهُ. وَعَلَى هَذَا يُحْمَلُ الْحَصْرُ فِي الْحَدِيثِ عَلَى

التَّكْثِيرِ، وَلَا وِجْهَةَ لِمَنْ حَصَرَ الْعَوَالِمَ فِي هَذِهِ الْكُرَةِ الْأَرْضِيَّةِ، إِلَّا عَدَمُ انْتِبَاهِهِ لِسِعَةِ مُلْكِ اللَّهِ، وَلَوِ الْتَفَتَ الْإِنْسَانُ مِنْ خَلْفِهِ وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ لَوَجَدَ مَا فَاتَهُ أَكْثَرَ مِمَّا حَصَّلَ عَلَيْهِ لَوْ تَمَعَّنَ فِي أَحَدِ الْكَوَاكِبِ الصِّغَارِ لَوَجَدَ فِيهِ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ وَكُبْرِ الْجُرْمِ مَا يُغْنِي عَنِ الْإِعْتِبَارِ. ذَكَرَ الْغَزَالِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ عَلَى أَصْحَابِهِ ذَاتَ يَوْمٍ، وَهُمْ يَتَفَكَّرُونَ، فَقَالَ: مَا لَكُمْ لَا تَتَكَلَّمُونَ. فَقَالُوا: نَتَفَكَّرُ فِي خَلْقِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. قَالَ: فَكَذَلِكَ فَافْعَلُوا تَفَكَّرُوا فِي خَلْقِهِ، وَلَا تَتَفَكَّرُوا فِيهِ، فَإِنَّ بِهَذَا الْمَغْرِبِ أَرْضًا بَيْضَاءَ، نُورُهَا وَبَيَاضُهَا نُورُهَا بَيَاضُهَا، مَسِيرَةُ الشَّمْسِ فِيهَا أَرْبَعُونَ يَوْمًا، بِهَا خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، لَمْ يَعْصُوا اللَّهَ طَرْفَةَ عَيْنٍ. فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَيْنَ الشَّيْطَانُ مِنْهُمْ. فَقَالَ: لَا يَدْرُونَ خُلِقَ الشَّيْطَانُ أَمْ لَا. فَقَالُوا: أَمِنْ أَوْلَادِ آدَمَ؟ قَالَ: لَا يَدْرُونَ خُلِقَ آدَمُ أَمْ لَا. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ لِلَّهِ أَرْضًا بَيْضَاءَ، مَسِيرَةُ الشَّمْسِ فِيهَا ثَلَاثُونَ يَوْمًا مِثْلُ أَيَّامِ الدُّنْيَا، مَشْحُونَةٌ بِخَلْقِ

اللَّهِ، لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُعْصَى فِي الْأَرْضِ، وَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ وَإِبْلِيسَ. ذَكَرَهُ الْخَزَالِي فِي جَوَاهِرِ الْقُرْآنِ. وَبِالْجُمْلَةِ إِنَّ حَصْرَ الْعَوَالِمِ فِي جِرْمِ الْأَرْضِ هُوَ مِنَ التَّحَكُّمِ عَلَى اللَّهِ، وَلَيْسَ هُوَ مِنَ الْعِلْمِ فِي شَيْءٍ. وَإِنِّي جَمَعْتُ كِتَابًا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِهَذَا الْبَابِ، وَسَمَّيْتُهُ «مِفْتَاحُ الشُّهُودِ فِي مَظَاهِرِ الْوُجُودِ»، فَرَاجِعْهُ فَإِنَّهُ مِنْ أَعْجُوبَةِ الدَّهْرِ. قَوْلُهُ تَعَالَى:

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: هُمَا إِسْمَانِ، أَحَدُهُمَا جَامِعٌ، وَالْآخَرُ مَانِعٌ، فَقَوْلُنَا فِي الْأَوَّلِ جَامِعٌ أَيْ كَافِلٌ بِجَلَائِلِ النِّعَمِ، فَكُلُّ نِعْمَةٍ تُدْرَكُ بَدَاهَةً يَسْتَشْعِرُهَا الْعَبْدُ مِنْ نَفْسِهِ، فَهِيَ مِنْ آثَارِ الرَّحْمَنِ، وَمَا دَقَّ وَرَقَّ هُوَ مِنْ آثَارِ الرَّحِيمِ. وَقَوْلُنَا فِي الثَّانِي مَانِعٌ أَيْ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِغَيْرِهِ فِي الرَّحِيمِيَّةِ أَدْنَى اكْتِسَابٍ، إِلَّا مُجَرَّدَ الِانْتِسَابِ لِمَنْ صَدَرَتْ عَلَى يَدَيْهِ. الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ اللَّهُ.

لِسَانُ الرُّوحِ: فِي الرَّحِيمِ مِنَ الْمُبَالَغَةِ مَا لَيْسَ فِي الرَّحْمَنِ، فَهُوَ بِالْجُزْئِيَّاتِ أَلْيَقُ، وَبِالْعُبُودِيَّةِ أَشْفَقُ، يَبْذُلُ مِنَ الْفَيَاضِ مَا وَافَقَ

إِذْ سَيَتَّخِذُ مُسْتَوْطَنَةَ السُّفْلِيَّةِ يَتَلَطَّفُ مَعَ الْكَبِيرِ، وَيَتَعَطَّفُ عَلَى الصَّغِيرِ، فَهُوَ بِالتَّوَاضُعِ حَقِيقٌ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ طَرِيقٍ، يُسْقِي الظَّمْآنَ، وَيُغِيثُ اللَّهْفَانَ، وَيُطْعِمُ الْجِيعَانَ، وَيَقُودُ الْأَعْمَى، وَيُؤْنِسُ الْغَرِيبَ، وَيَعُودُ الْمَرِيضَ، فَلَوْ رَأَيْتَهُ لَأَشْفَقْتَ مِنْ حَالِهِ، وَبِالْأَخَصِّ عِنْدَ التَّنَزُّلِ الْأَخِيرِ حَيْثُ اتَّصَلَ بِالْأَرْحَامِ لِيَسْتَخْرِجَ الْجَنِينَ بَيْنَ فَرْثٍ وَدَمٍ.

التَّفْسِيرُ: قَوْلُهُ تَعَالَى:

مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ: أَيْ يَوْمِ الْجَزَاءِ. فَفِيهِ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَلَوْلَا ذِكْرُهُ تَعَالَى هَذِهِ الْجُمْلَةَ عَقِبَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، لَمَا الْتَجَأَتِ الْمَوْجُودَاتُ أَنْ تَقُولَ: إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ لِمَا أَغْمَرَهَا مِنْ فَيَاضِ الرَّحْمَانِيَّةِ وَأَنْوَارِ الرَّحِيمِيَّةِ. ثُمَّ أَنَّ الْعِبَادَةَ جَاءَتْ عَلَى شِقَّيْنِ، فَظَاهِرُهَا إِيَّاكَ نَعْبُدُ، وَبَاطِنُهَا إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ، وَالظَّاهِرُ يُعْتَبَرُ بِبَاطِنِهِ. فَالشِّقُّ الْأَوَّلُ يُثْبِتُ وُجُودَ الْكَسْبِ، وَالثَّانِي يَنْفِيهِ، وَالنَّجَاةُ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ، فَالْآخِذُ بِالشِّقِّ الْآخَرِ يُخْشَى مِنْهُ، وَالْآخِذُ بِالْأَوَّلِ يُخْشَى عَلَيْهِ.

الإِشَارَةُ : فِي قَوْلِهِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ تَشْعِرُنَا بِلُزُومِ ارْتِبَاطِ الشَّرِيعَةِ بِالْحَقِيقَةِ ، فَالشِّقُّ الأَوَّلُ مِنَ الآيَةِ شَرِيعَةٌ ، وَالشِّقُّ الثَّانِي مِنْهَا حَقِيقَةٌ ، الأَوَّلُ يُثْبِتُ شَيْئًا مِنَ الْكَسْبِ ، وَالثَّانِي يَنْفِيهِ ، فَالأَوَّلُ لِلنَّظَرِ الْعَامِّ أَقْرَبُ ، وَالثَّانِي عِنْدَ الْخَوَاصِّ أَرْغَبُ ، لِأَنَّ الأَوَّلَ عَمَلٌ لِلَّهِ ، وَالثَّانِي عَمَلٌ بِاللَّهِ ، فَالأَوَّلُ عَمَلُ الأَبْرَارِ ، لِأَنَّهُمْ قَائِمُونَ لِلَّهِ ، وَالثَّانِي عَمَلُ الْمُقَرَّبِينَ ، لِأَنَّهُمْ قَائِمُونَ بِاللَّهِ ، فَالأَوَّلُ غَايَتُهُ طَلَبُ الْجَزَى وَالثَّانِي كَفَى بِهِ جَزَى ، لِأَنَّ الأَوَّلَ عِلَّتُهُ لِأَدَاءِ وَاجِبِ التَّكْلِيفِ ، وَالثَّانِي زُبْدَةُ نَتَائِجِ التَّعْرِيفِ ، فَالشِّقُّ الأَوَّلُ مُكَابَدَةٌ ، وَالثَّانِي مُشَاهَدَةٌ ، فَهَذَا يَتَأَلَّمُ فِي عِبَادَتِهِ ، وَالآخَرُ يَتَنَعَّمُ فِي مُشَاهَدَتِهِ ، كُلًّا نُمِدُّ ، هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ . وَقُدِّمَتِ الْعِبَادَةُ عَلَى الإِسْتِعَانَةِ نَظَرًا لِلْمَقَامِ الْعَامِّ ، حَيْثُ يُعْتَبَرُ الْفِعْلُ قَبْلَ تَجْرِبَةٍ ، وَأَمَّا النَّظَرُ الْخَاصُّ يَعْتَبِرُهَا مُؤَخَّرَةً ، فَهُوَ غَائِبٌ عَنْهَا فِي شُهُودِ مُجْرِيهَا ، فَالأَوَّلُ يُسْتَعَانُ بِالْعِبَادَاتِ عَلَيْهِ ، وَالثَّانِي يُسْتَعَانُ بِهِ عَلَيْهَا ، فَيَكُونُ هُوَ الْفَاعِلُ فِيهَا لَا غَيْرُ ، وَفِي تَقَدُّمِ ضَمِيرِ الْمَعْبُودِ وَاتِّصَالِ ضَمِيرِ الْعُبُودِيَّةِ ، وَتَأْخِيرِ

الْعِبَادَةِ فِي قَوْلِهِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ مَا يُشْعِرُ الْعَبْدُ بِقُرْبِهِ مِنَ اللَّهِ بِالْأَصَالَةِ مَهْمَا عَرَفَ مَكَانَتَهُ مِنَ اللَّهِ قَبْلَ وُجُودِ الْعِبَادَةِ، فَلَا تَكُونُ الْعِلَّةَ فِي تَحْقِيقِ الْإِتِّصَالِ، لِقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: لَنْ يَدْخُلَ أَحَدُكُمُ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ، وَالْمَعْنَى أَنَّ وُجُودَ الْعَبْدِ أَسْبَقُ مِنَ الْعِبَادَةِ، فَالْمَعْرِفَةُ ثُمَّ الْعِبَادَةُ، فَالْمَعْرِفَةُ تَسْتَلْزِمُ الْعِبَادَةَ وَلَا عَكْسَ. وَأَمَّا انْتِقَالُهُ تَعَالَى مِنْ ضَمِيرِ الْغَيْبَةِ إِلَى ضَمِيرِ الْحُضُورِ مِنْ قَوْلِهِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، إِلَى قَوْلِهِ: إِيَّاكَ نَعْبُدُ، فِيهِ تَعْلِيمٌ لِلْمُتَوَجِّهِ، كَيْفَ يَنْتَهِي سَيْرُهُ مِنَ الْغَيْبَةِ عَنِ اللَّهِ إِلَى الْحُضُورِ مَعَهُ، إِلَى أَنْ تُحْذَفَ الْوَسَائِطُ، وَيَصِيرُ الْخِطَابُ بَيْنَ مُخَاطِبٍ وَمُخَاطَبٍ، إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ، لَا غَيْرُ.

لِسَانُ الرُّوحِ: يَفْنَى ضَمِيرُ النُّونِ مِنْ إِيَّاكَ نَعْبُدُ فِي ضَمِيرِ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ، حَتَّى إِذَا انْحَصَرَتِ الْعِبَادَةُ فِي الْإِسْتِعَانَةِ، بَقِيَتِ الْإِسْتِعَانَةُ وَالْمُعِينُ، فَأَيْنَ الْعِبَادَةُ وَالْعَبْدُ، إِنْ كُنْتَ ذَا يَقِينٍ، فَسِرُّهُ يُخْبِرُهُ وَحَقِيقَتُهُ تَشْهَدُهُ مَا عَرَفَ اللَّهَ مَنْ قَالَ إِيَّاكَ نَعْبُدُ، وَلَا عَبَدَهُ مَنْ قَالَ: إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ